مساجد الموصل إبّان التدمير والإعمار
جامع الباشا انموذجاً

م. وسن عبد المطلب حسن
جامعة الموصل – كلية الآثار

م. د. هيثم قاسم محمد
جامعة الموصل – كلية الآثار

الملخص

للمساجد أهمية كبيرة في حياة المسلمين دون غيرها من مبانٍ، ولا يمكن تصور المدينة الاسلامية من دون مسجد. كانت المساجد وما زالت أهدافا للأعداء، يُحْدِثونَ فيها الدمار والخراب ما استطاعوا؛ لذا تعرّضت مساجد مدينة الموصل إلى كثيرٍ من الدمار والخراب، فدمّر بعضها بأبشع الطرائق، ممّا ترك جروحا عميقة في نفوس سكانها. إلى جانب ما رافق العمليات العسكرية التي هدفت الحكومة العراقية منها إلى تحرير الانسان والأرض، لتعيد سلطتها وهيبتها على محافظة نينوى من جديد بعد أكثر من عامين. ومن نافلة القول أنْ يصحب تلك العلميات دمار وخراب مهما كانت القوات المهاجمة متدربة ومجهزة بأسلحة نوعية؛ كونها معركة بطابع خاص. عدو شرس، وسط مدينة بمورفولوجيا معقدة جداً من الجانب العسكري، ممّا يعني تكرار عمليات الهجوم والانسحاب التكتيكي، لسحب العدو إلى مناطق أكثر انفتاحاً يسهل فيها القضاء عليه. صاحب تلك العلميات التي استمرت شهوراً طويلة قصف كثيف من الأرض والجو، كانت نتيجته أضراراً جسيمة في بنية الموصل القديمة، ومنها المساجد.

تفاوتت المساجد بدرجات أضرارها، ومع هذا يمكن القول إنّ معظمها يمكن إعادتها؛ إذ إنّ أضرارها جزئية. وبالفعل تمت إعادة بعضها، فرفع الآذان فيها واقيمت الصلاة من جديد، ولكن طموح المواطن الموصلي إعادة اعمار المدينة كلّها.

الكلمات المفتاحية: المسجد، الخراب، العمليات العسكرية، جامع الباشا، القبة.

The Mosques of Mosul from destruction to reconstruction: Al Basha Mosque as a case study

L. Dr. Haitham Q. Mohammad
L. Wasan A. Hasan

University of Mosul- College of Archaeology

Abstract

Mosques have great importance in the lives of Muslims without other buildings, so they were and still targets for enemies, where they are destroy what they can. The mosques in the city of Mosul were destroyed, some of them destroyed by the worst of manners, these caused deep wounds in the hearts of their in habitants. This is accompanied by the liberation of the city from destruction and ruin because the battle has a special character. A fierce enemy in the middle of a city with a very complex morphology of the military side, which means repeated attacks and tactical withdrawal to withdrawal the enemy into open areas to eliminate them. The resulted of operation which lasted for many months violent bombardment of the ground and air, it was resulted in serious damage of the old Mosul structure, including mosques .

The damage of mosques is in varying degrees, however, it is possible to say most of them can be returned, and its damaged is partial and some of them have already rebuilt and prayer has been resumed, but the citizen´s ambitions is to rebuild all the city.

Keywords: Mosque, Destruction, Military Operations, Al Basha Mosque, Domes.

١/ المقدمة:

بما أنّ أساس وظيفة المسجد تتعلق بصلاة الجماعة، أصبحت أهميتها كبيرة للمسلمين. ومن البديهي أن تلقى المساجد نصيباً كبيراً من الدمار والخراب؛ نتيجة للاضطرابات السياسية والأمنية التي تتكرر بين الحين والآخر، كما حدث في الموصل نتيجة خروجها عن سلطة الدولة المركزية. فكان الخراب بمساجدها جسيماً، إذ تم تدمير بعضها عن قصد. ناهيك عن خراب كبير لحق بأكثر المساجد؛ نتيجة للإهمال، واتخاذها كمقرات عسكرية ومخازن أعتدة وورشات لصناعة المتفجرات، ولاسيما مع بدء عمليات التحرير التي بلغت الذروة في المنطقة القديمة. فتضررت المساجد وغيرها من المباني؛ نتيجة للضربات الجوية والقصف الكثيف المتبادل بين القوتين المتقاتلتين من أجل السيطرة على الأرض. فسقطت الأجزاء العليا من معظم مآذنها، فضلاً عن أضرار قبابها ومصلياتها وأقسام أخرى منها.

قسم بحثنا الموسوم "**مساجد الموصل بين التدمير والإعمار**" إلى محاور تركزت بأضوائها على جوانب، منها أهمية المسجد في حياة المسلمين، وواقع مساجد الموصل بعد الخراب، ليكون جامع الباشا انموذجاً بوصفه حالة دراسية.

اعتمدنا في دراسة الموضوع على قواعد علمية تقوم على المشاهدة عن كثب عبر المراحل المتعاقبة التي مر بها جامع الباشا، ليتسنى للقارئ الإحاطة بما كان عليه الجامع وما آل إليه من خراب بعد أحداث خروج الموصل عن سلطة حكومة العراق الاتحادية في يوم (١٠/ ٦/ ٢٠١٤م)، وحتى إعلان تحريرها في يوم (١٠/ ٧/ ٢٠١٧م)، ومن ثم صورته النهائية بعد إعادة بنائه ما بين عامي (٢٠١٨-٢٠١٩م)، فضلاً عن ذلك فقد أردف البحث بصور ومخططات وجدول، توثق ما ورد في متن كلامه وتزيده وضوحاً وبياناً.

٢/ أهمية المسجد في حياة المسلمين:

للمسجد أهمية شرعية في تنظيم حياة المسلمين، وتعلقه بصلاة الجماعة. لهذا يجب تعميره بالصلاة والاعتكاف. قال الله تعالى **((إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ))**[١]. والمعنى: كلّ من وحَّدّ الله تعالى وآمن باليوم الآخر، وأقام الصلاة[٢]. وقيل: إنها شهادة لِعُمَّارِ المساجد بالإيمان، وهو ما أكده (عليه الصلاة وَالسلام) بقوله: **((إِذَا رَأَيْتُمُ الرَّجُلَ يَعْتَادُ الْمَسْجِدَ فَاشْهَدُوا لَهُ بِالْإِيمَانِ))**[٣]. ذم الله تعالى من نافى صفة عمّار المساجد بقوله: **((وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ))**[٤]. اختلف في معناها، فقال بعضهم إنهم النصارى،

وقال آخرون إنّه بختنصر وجنده ومن أعانهم من النصارى، والمسجد هو بيت المقدس[٥]. وقيل المراد بها من منع من كل مسجد إلى يوم القيامة، وهو الصحيح، فاللفظ عام ورد بصيغة الجمع، وتخصيصها ببعض المساجد والأشخاص ضعيف[٦].

وقد بين النبي (صلى الله عليه وسلم) ثواب بناة المساجد بقوله: **((مَنْ بَنَى لِلَّهِ مَسْجِدًا وَلَوْ كَمَفْحَصِ قَطَاةٍ لِبَيْضِهَا، بَنَى اللَّهُ لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ))**[٧]. بهذا تكون المساجد بيوتاً لله تعالى ولبناتها وعمّارها أجر عظيم. ومع أنّها من بناء الانسان، لا يحق له استملاكها ولا التصرف بها كيفما يشاء، إلاّ فيما يبتغي به وجه الله تعالى.

٣/ واقع مساجد الموصل بعد الخراب:

طال عمارات الموصل القديمة شأنها كشأن حضارة محافظة نينوى عموماً خراب كبير؛ نتج عن أحداث خروج الموصل عن سلطة بغداد المركزية. تحقق الخراب فيها بتدمير تأريخها وحضارتها، ومن أهم المباني التي كانت هدفاً للتدمير، المساجد. إذ تم تدمير كثير منها بطرائق متعددة، فمنها ما دُمِّر بتفجير، أو بتجريف، ناهيك عن تضرر كثير منها بفعل المعارك الضارية في المنطقة القديمة، والقصف العشوائي الذي ترك آثاراً على كل شيءٍ فيها.

هجرت معظم مناطق الموصل القديمة، لتهجر معها مساجدها وتغلق أبوابها؛ نتيجة لخرابها أو حرقها، حتى غدت مجمعاً للأنقاض والأوساخ، فضلاً عن اتخاذ بعضها مقرات عسكرية ومخازن للسلاح ومصانع لآلة الحرب، فتعطّلت عن وظيفتها الأساس شهوراً طويلة، لا صوت مؤذن ولا إقامة صلاة ولا ذكر لله تعالى فيها. وعلى الرغم من إعادة بعض المساجد، إلاّ أنّ كثيراً منها ينتظر الدور بإعادة البناء، لذلك فإن لسان حال المساجد اليوم يقول بإيجاب الإسراع لإعادة تأهيلها وفتح أبوابها من جديد أمام المصلين والمعتكفين، ناهيك عن دورها الاجتماعي والاقتصادي في حياة المسلمين.

٤/ جامع الباشا حالة خراب وإعادة إعمار:

يتضمن هذا المحور موقع الجامع وتأريخه، فضلاً عن تخطيطه وعمارته. وارتأينا ذكر أضراره وعمليات إصلاحها فيه، ليتضح منها أن لإتقان بناء الجامع سبب في حفظه على الرغم من شراسة المعارك وكثافة نيرانها على المنطقة.

٤-١/ موقع الجامع وتأريخه:

يقع الجامع في السوق الكبير المعروف بسوق السراي[٨] (الصورة ١). تولى عمارته والي الموصل حسين باشا الجليلي[٩] وولده محمد أمين باشا عام (١١٦٩هـ/١٧٥٥م)؛ لهذا سمي بجامع الباشا[١٠]. تعددت أدواره العمارية، ففي عام (١١٧١هـ/ ١٧٥٧م) اتخذت الجهة الغربية

من رواق المصلى مقبرة[١١]. وفي عام (١٢٨٤هـ/١٨٦٧م) أُنْشِئت فيه ميضأة ماء وسط الصحن. في حين هدم المصلى والأروقة في عام (١٣٧٥هـ/١٩٥٥م)، وأعيد البناء على أسسه القديمة[١٢].

٤-٢/ تخطيط الجامع وعمارته:

توسط الجامع صحن مكشوف، انفتحت عليه وحدات بنائه. أهم مكوناته مصلى مستطيل بجدران سميكة، لتزداد قابليته في تحمل ثقل القبّة والعقود التي ترفعها (الشكل ١). تضمن المصلى ثمانية أعمدة، قَسّمت فضاءه إلى ثلاثة أساكيب وخمس بلاطات، أوسعها بلاطة المحراب والتي سقفت بقبة (الشكل ٣). وممّا يلاحظ على أعمدته الأربعة بجانبه الشرقي التي تشابه أعمدة الجانب الغربي بالشكل، بيد أنّها لا تساويها في الطول. عولجت المعضلة برفع العقود التي تعلوها إلى مستوى ارتفاع عقود الجانب الغربي[١٣]، فانتظم توزيع الحمل على نقاط الارتكاز. أدمج بجدران المصلى اثنا عشر عموداً برزت عن سمتها من الداخل؛ لتدعمها وتقويها، فضلاً عن حمل العقود (الشكل ١، ٢).

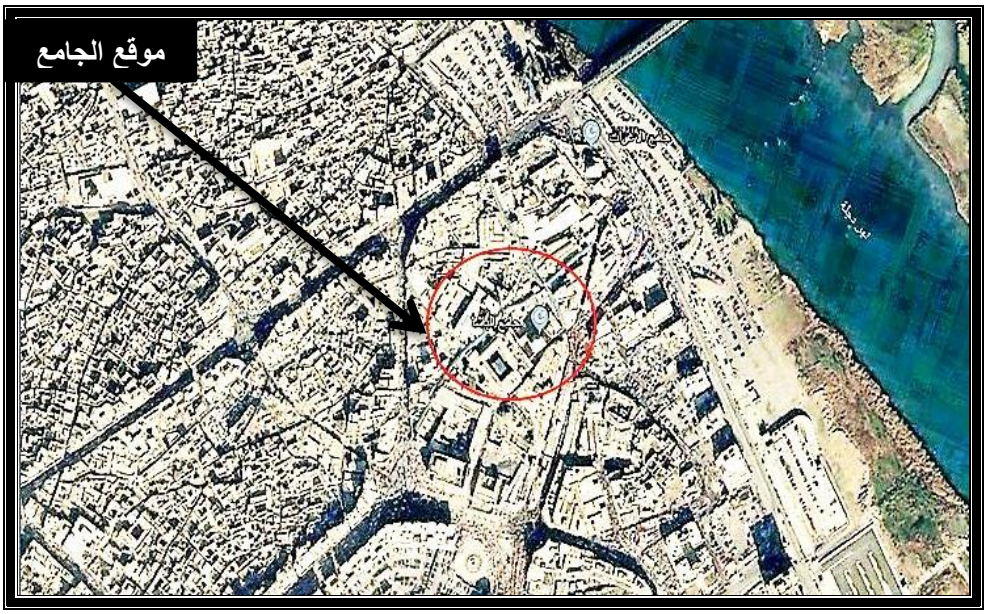

الصورة (١) صورة جوية لموقع جامع الباشا/ الباحثان بالاعتماد على (Google earth)

أنفتح المصلى على الصحن برواق[١٤]، عالج مشكلات البيئة، واستخدم للصلاة وقت اكتظاظ المسجد بالمصلين (الصورة ٣: د). شغل الجانب الغربي من صحن الجامع بمدرسة، قوامها إيوان تكتنفه غرفتان، استخدمت إحداهما بوصفها مكتبة، بينما خصّصت الأخرى للتدريس، ناهيك عن غرفة ثالثة للإمام (الشكل ١). توسط الصحن ميضأة تتألف من حوض حجري، بسقف مضلع ارتكز على أعمدة (الصورة ٦).

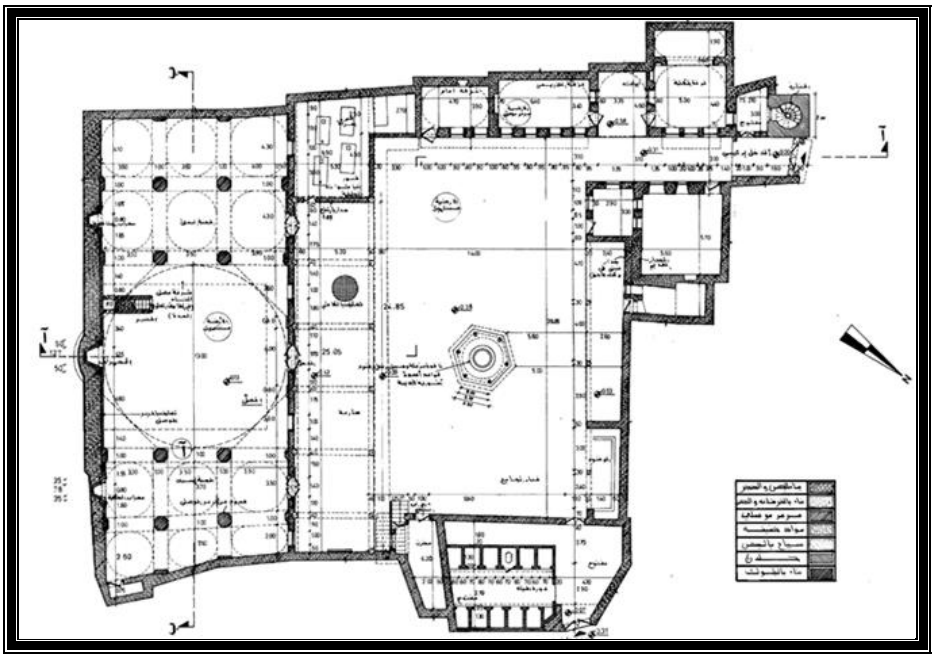

الشكل (١) مسقط افقي لجامع الباشا/ عن مكتب الانشاءات الهندسي

ب/ باطن قبة المصلى

أ/ قبة المصلى ورواقه

الصورة (٢) واقع حال جامع الباشا بعد العمليات العسكرية مباشرة/ تصوير الباحثان ٢٠١٧م

أ/ بعد تصلح الاضرار/ ٢٠١٨م

ب/ بعد إتمام الطلاء النهائي

ج/ كرات القبة وهلالها القديمة والجديدة

د/ قبة المصلى ورواقه بصورة نهائية بعد إتمام اعمال البناء

الصورة (٣) مصلى الجامع وقبته بعد التصليح/ تصوير الباحثان ٢٠١٨ـ ٢٠١٩م

ومن عناصر الجامع الاخرى ثلاثة محاريب، توسط الرئيس منها جدار القبلة، ليقع الآخران على جانبيه (الشكل ١، ٣). أهمها المحراب الرئيس وقوامه تجوف مزدوج، داخلي بهيأة نصف مضلع خماسي، يحفّ به عَقْد، شغل باطنه بمقرنصات. أمّا الخارجي فمستطيل يعلوه عقد يرتكز على عمودين، ازدانت كوشته بطبقين نجميين، ويؤطرها شريط كتابي[١٥]. تجسدت حدود المحراب في جدار القبلة بإطار مزدوج من جامات محرابية، أزادته جمالاً.

ومن عناصر الجامع المهمة مئذنة، تتألف من قاعدة موشورية وبدن أسطواني بشرفة، تعلوها رقبة غطيت بقبّة مخروطية معدنية مضلعة الشكل (الشكل٢، الصورة ١٠: أ). أمّا

جدرانها فسميكة في القاعدة تقلّ في البدن، وهكذا في رقبتها، لتقلّل من اجهادات البناء. فتحت فيها نوافذ حققت اضاءة وتهوية بداخلها، كما أنّها خففت من قوة الرياح عليها.

٤-٣/ الاضرار وعمليات إعادة البناء:

أصيب الجامع نتيجة العمليات العسكرية بأضرار جزئية (الصورة ٢: أ، ب)، لتتم عملية بنائه فيما بعد بإشراف دائرتي أوقاف نينوى وآثارها. إذ تم اصلاح القبة التي تسقف المصلى (الصورة ٣: أ، ب)، واستبدال كراتها وهلالها القديم، بأخرى جديدة أكثر ارتفاعاً وأكبر حجماً (الصورة ٣: ج، د). أما المحراب فقد أصيب هو الأخر بأضرار تمثلت بتخريب باطن عقده وسقوط مقرنصاته (الصورة ٤: أ، ب)، والتي تم إعادة ترتيبها وتركيبها من جديد على نحو ما كانت عليه (الصورة ٥). وفي الحقيقة أنها مقرنصات مستحدثة، إذ تعذر إعادة الأصل منها بسبب تهشم معظمها، وتضرر كبير ببقيتها. لذلك تم الاعتماد على صور زود بها إمام الجامع الاشخاص القائمين على أعمال البناء. وفي ضوء هذه الصور، فضلاً عن بقايا كسر القطع الأصلية تم صنع مقرنصات مطابقة للأصل في الشكل[١٦].

أ/ محراب المصلى الرئيس ومنبره ب/ أضرار مقرنصات المحراب

الصورة (٤) محراب المصلى الرئيس/ تصوير الباحثان ٢٠١٧م

ومما يؤسف له تعرض ميضأة الجامع إلى الدمار، وما تبقى منها أجزاء مهشمة لقطع كانت تشكّلها (الصورة ٧: أ، ب). أعيد تجميع القطع بعد بدء أعمال البناء، ليعاد تشكيلها وسط الصحن من جديد، على وفق ما كانت عليه (الصورة ٨: أ، ب). وقد تم الاعتماد في إعادة بنائها على رسوم وصور قديمة زودت بها دائرة آثار نينوى مشرفي أعمال البناء، لذلك جاءت الميضأة على وفق هيأتها قبل الخراب، فأعمدتها التي ترفع سقفها أصلية، تم إعادتها بعد اصلاح تكسراتها. أما عقودها فإسمنتية مستحدثة مطابقة للأصل في الشكل. في حين أن الحوضين أحدهما أصلي والآخر مستحدث، فالسفلي منهما أصلي، والعلوي مستحدث؛ لتعذر أعادته،

لتهشمه تماماً[١٧]، فضلاً عن ذلك فقد استحدثت قبة معدنية في تتويج الميضأة، بهيأة مخروطية ذات أخاديد رأسية (الصورة ٩).

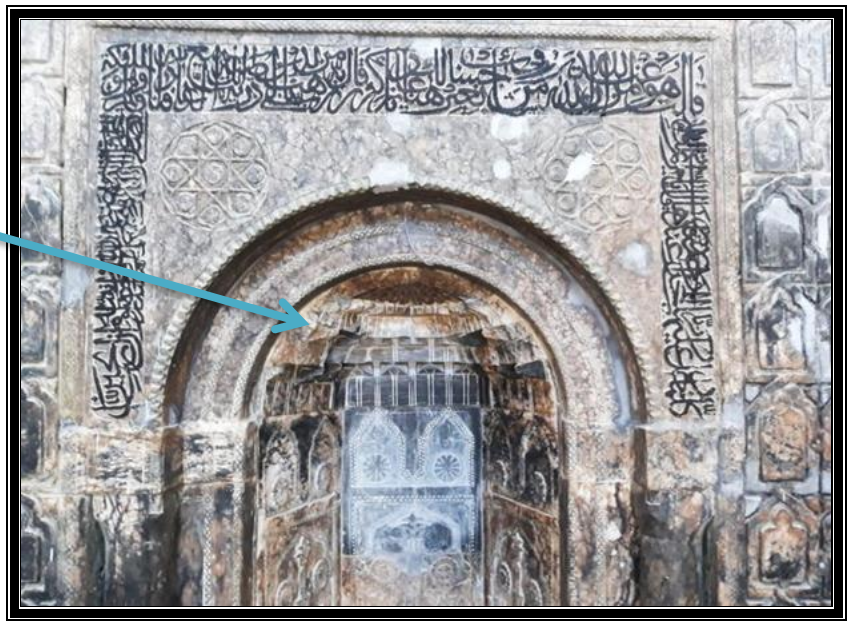

الصورة (٥) المحراب بعد اصلاحه/ تصوير الباحثان ٢٠١٩م

أما المئذنة فقد تعرضت هي الأخرى لأضرار نتيجة للقصف الذي رافق عمليات تحرير منطقة سوق السراي، تمثل بتدمير جزئها العلوي، لتضحى مئذنة جامع الباشا بلا رقبة شأنها كشأن مآذن اخرى تعود للمدّة الزمنية نفسها في الموصل القديمة، والتي سقطت أجزاؤها العليا بفعل المعارك ايضاً. اعيد بناء المئذنة على وفق ما كانت عليه، إلا أن قبتها المعدنية الجديدة نفذت بهيأة مخروط ذي أخاديد رأسية على غرار ما هي عليه قبة الميضأة (الصور ٩، ١٠: ب، ج، د).

وما يخص جدران المسجد عموماً فقد تمثلت أضرارها بسقوط طبقة الجص التي كانت تكسوها، فتطلب إصلاحها إزالة ما تبقى منها وإعادة تجديدها. كما جددت جدران مدرسة الجامع من جهة الصحن بعد ان كانت مكسوة بطبقة جص، تمت إزالتها، لتغلف بحجر الحلان (الكلس) الذي كثيراً ما اعتاد المعمار الموصلي قديماً على استخدامه في تغليفات الجدران الخارجية؛ بفعل مقاومته عوامل الطبيعة بصورة أكبر مما هي عليه مواد البناء الأخرى (الصورة ١٠).

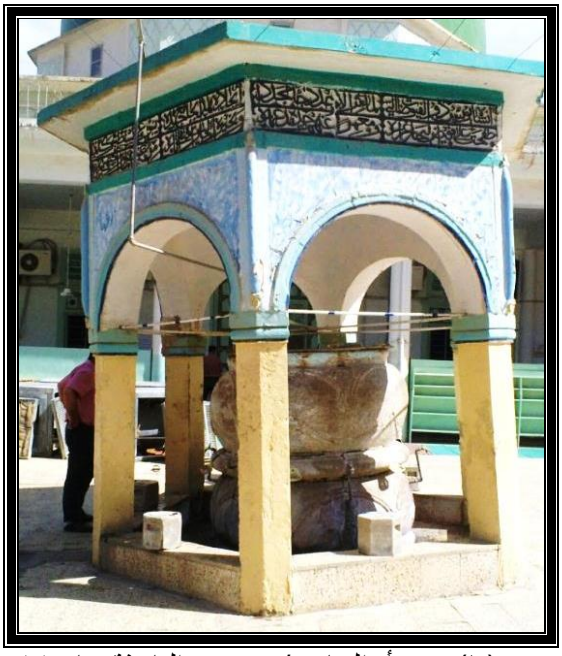

الصورة (٦) ميضأة الجامع/ تصوير الباحثة عام ٢٠١١م

أ/ بقايا حوض الماء

ب/ بقايا أعمدة وأقواس كانت تحمل سقف الميضأة

الصورة (٧) بقايا ميضأة الجامع/ تصوير الباحثان/ ٢٠١٧م

أ/ تجميع قطع حوضي الميضأة ب/ تركيب أعمدة الميضأة وعقودها

الصورة (٨) إعادة تشكيل الميضأة في وسط صحن الجامع/ تصوير الباحثان ٢٠١٩م

الصورة (٩) رواق المصلى والميضأة في وسط الصحن بعد اعادة البناء/ تصوير الباحثان ٢٠١٩م

يتضح ممّا تقدّم تميز جامع الباشا بخصائص بنائية تحسب لها المعمار الحسابات، كانت سبباً في سلامة معظم عمارته من القصف الجوي والمدفعي، وما ينتج عنه من عصف شديد طال المنطقة أيام معارك التحرير. منها سمك الجدران التي بُنيت بالحجارة الكلسية والجص، فضلاً عن اعتماد أعمدة كبيرة في حمل السقوف، ناهيك عن اخرى ادمجت في الجدران من الداخل، لتحمل قبة كبيرة مدببة الرأس (الصورة ١١، الشكل ٣).

أمّا منطقة سوق السراي التي يقع فيها الجامع فأصيبت إبّان عمليات التحرير بأضرار جسيمة نتيجة للقصف الجوي، فضلا عن القصف المتبادل بين القوتين المتضادتين أرضاً من أجل السيطرة على تلك المنطقة الاستراتيجية، التي تمهد لمن يسيطر عليها، ولاسيما الجيش العراقي

الباسل التقدم عمقاً نحو الأحياء القديمة التي تميّزت بنظام (مورفولوجي) معقّد من الجانب العسكري، نظراً لتضام أبنيتها، ناهيك عن ضيق أزقتها وتشعبها وتميّز الأبنية بخصائص عمارية منها احتواؤها على أقبية (سراديب)[١٨]، ممّا يصعّب اقتحامها. ولكن عندما أحكم الجيش قبضته على منطقة الأسواق، تمهد له الطريق للتقدّم عمقاً في المنطقة القديمة.

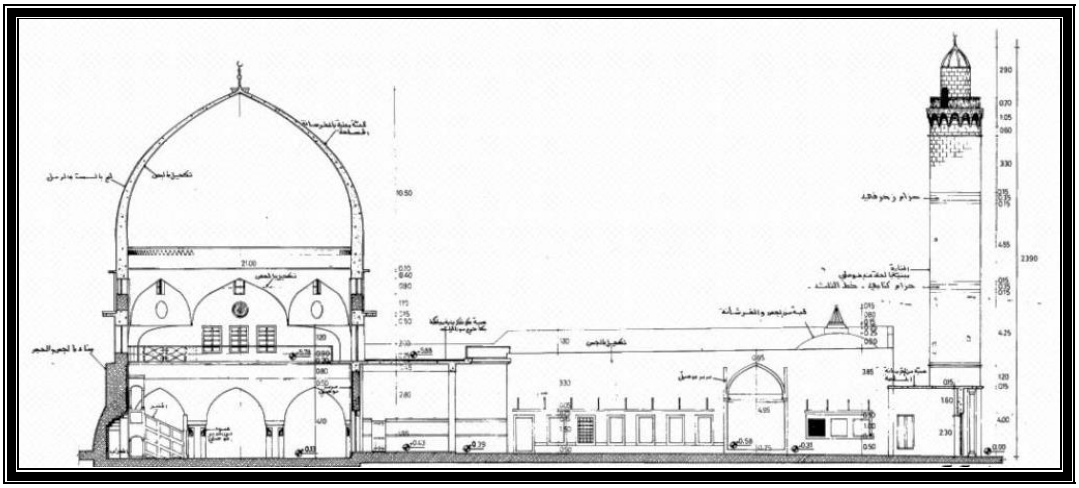

الشكل (٢) مقطع رأسي (أ ـ أ) جامع الباشا/ عن مكتب الانشاءات الهندسي

أ/ قبل الخراب/ عام ٢٠١١م

ب/ الصحن والمئذنة والمدرسة/ عام ٢٠١٧م

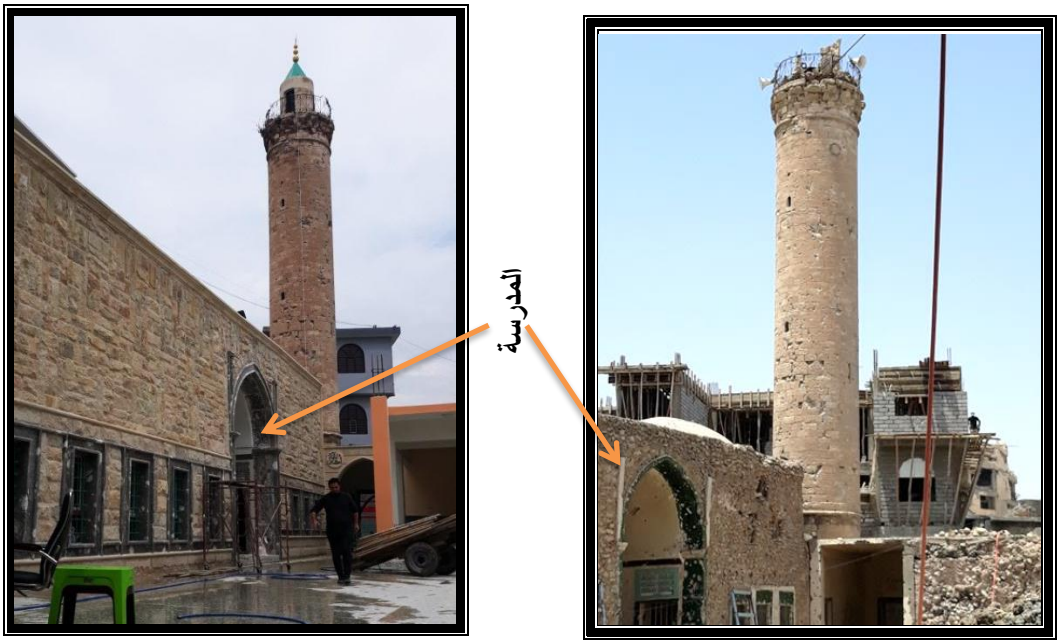

ج/ مئذنة الجامع بعد الخراب د/ المئذنة والمدرسة بعد الاصلاح/ ٢٠١٩م

الصورة (١٠) واقع مئذنة الجامع وصحنه ومدرسته قبل معارك التحرير وبعدها/ تصوير الباحثان

الصورة (١١) واقع حال منطقة جامع الباشا بعد معارك التحرير/ عن قناة RT الفضائية

لذلك تطلب أمر السيطرة على المنطقة التجارية في الموصل من الجيش العراقي جهوداً كبيرة، تمثلت بزيادة الغطاء الناري، ما أدّى إلى أحداث أضرر كبيرة في بُناها التحتية. والذي زاد الطين بلة عمليات الكرّ والفر، وما يصحبها من قصف متبادل، علاوة على القصف الجوي الذي لا يبقي ولا يذر، ولاسيما في أبنية تقليدية أهملت في السنوات الماضية. ومع ذلك صمد كثير منها، وهذا دليل على متانة بنائها. بهذا أصبحت عمائر الموصل لسان حال للمعمار

الموصلي، قالت قولتها الفصل بما أراده من حلول ومعالجات كانت سبباً في سلامة الأبنية، لتستمر باستدامتها كما أرادها المعمار، على الرغم من قوة الانفجارات التي أحاطت بها من كل جانب وما ينتج عنها من اهتزازات، ما يؤثر سلباً على البناء، لولا إحكام بنائه.

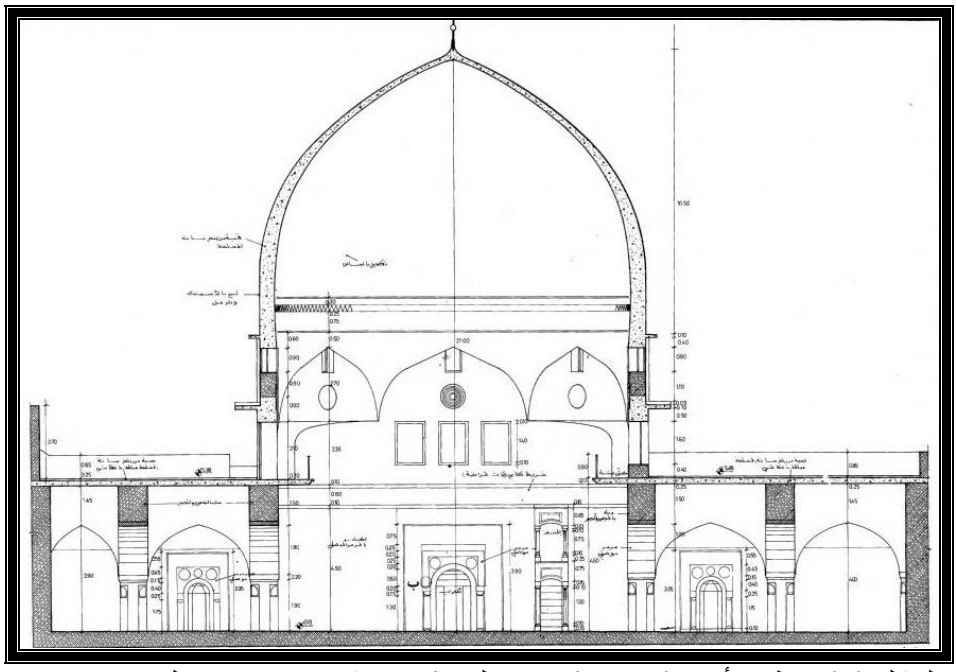

الشكل (٣) مقطع رأسي (ب ـ ب) جامع الباشا/ عن مكتب الانشاءات الهندسي

٥/ إعادة بناء المساجد ضرورة شرعية:

يجب على الجهات المعنية السعي لإعادة بناء ما تهدم من مساجد، وبخاصة ما يمكن إصلاحه. إذ إنّ إعادة تأهيل المساجد بإزالة أنقاض ما تهدم منها، وما رمي من مخلفات حرب ونفايات فيها، ضرورة شرعية واجبة. فقد أمر النبي (صلى الله عليه وسلم) ببناء المساجد، وإنّ إعادة تأهيلها كما كانت هي بمثابة بنائها في الأجر. كما أنّه (عليه الصلاة والسلام) أمر بازلة كل أذى عنها، حتى لو كان ذلك من الطعام، فعن جابر بن عبد الله الأنصاري (رض) أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال: **((من أكل من هذه الشجرة المنبتة، فلا يقربن مسجدنا، فان الملائكة تَأَذَّى، ممّا يتأذّى منه الْإِنْسُ))**[١٩]. فإذا كانت الملائكة تتأذى من رائحة البصل والثوم، فكيف بها من روائح مخلفات الحروب التي ملأت كثيراً من مساجد الموصل. ولكل من يسعى إلى تنظيف المساجد بإزالة الأذى والقذى عنها اجرٌ عظيم[٢٠]. لهذا فإن إعادة تأهيل مساجد

الموصل اليوم بإزالة الخراب عنا هو من شأن بنائها وتنظيفها، ولكل من يقوم بذلك اجرٌ عظيم كونه أعادها، ليعاد ذكر الله تعالى فيها.

ومع هذا قد لا يكون ذلك كافياً بإعادة الصلاة اليها، فإعادة المساجد مع عدم إعادة أسواق الموصل القديمة، فضلا عن إعادة أحيائها، ليتسنى لأهلها العودة بعد توفير الخدمات الاساسية من ماء وكهرباء وخدمات البلدية والصحة والتعليم. وهي مطالب لا يمكن تحقيقها إلاّ بجهود الدولة المركزية والحكومة المحلية. واللتان يجب عليهما ألاّ تدّخران جهداً في ذلك، لتنتفي المشكلة، فإعمار الأرض مرتبط بالإنسان. وعودة الموصل القديمة كما كانت متمم لإعادة تأهيل مساجدها التي ستمتلئ بمصليها من جديد.

٦/ الخلاصـــة:

تعمل الحروب والاضطرابات السياسية الدمار بحضارات الانسان أكثر مما تعمله معاول المخربين. وكثيراً ما يتعمد الأعداء تدمير تأريخ من يناوؤنهم، والمساجد من أكثر الأبنية التي تكون هدفاً للتدمير والتخريب.

كان المسلمون قد اتخذوا بفتوحاتهم وسط كل مصر مسجداً، يجاوره دار امارة، تليه أسواق، ثم خطط الناس. وبهذا يكون الترابط العضوي أساساً جوهرياً في المدينة الاسلامية، ونواته المسجد الجامع. وكان هناك حرص على اتخاذ مسجد في كل حي سكني أيضاً، ناهيك عن تركيز اتخاذها في منطقة الاسواق، كونها مكان استقطاب الناس.

تضمنت المنطقة التجارية بالموصل أسواقاً عديدة انتشرت على رقعة واسعة، اتخذت فيها مساجد. شهدت تلك المنطقة عمليات عسكرية واسعة استمرت شهوراً طويلة، كانت نتيجتها دمار وخراب أبنيتها، ومنها المساجد. لذلك يجب إعادة ما يمكن إعادته، حتى تعاد الصلاة فيها. وبالفعل تم إعادة بعض المساجد، ولكن لا يبدو هذا الأمر كافياً، إذ إن معظم سكان المنطقة القديمة مهجرون؛ بفعل خراب مناطقهم. فهم الآن بأمس الحاجة إلى من يمدّ لهم يد العون، ليتمكنوا من إعادة بناء ما خرب.

تمثلت خلاصة أعمال بناء جامع الباشا بعد رفع الأنقاض وبحسب ما أفادنا بعض المشرفين على العمل، بمرحلتين. ففي الأولى منهما تمت معالجة القبة وصبغها، كما تم رفع كل الأصباغ القديمة عن الفرش الموصلي وإعادة صقله من جديد، فضلاً عن إعادة المحراب وإكساء الجدران واصلاح الأرضيات والمئذنة. وتم الاعتماد في ذلك على صور قديمة للجامع. أما في المرحلة الثانية فقد تم فيها تطوير الجامع ببعض مواد البناء الحديثة، كالكاشي والموزاييك، ناهيك

عن الكهربائيات، وتطوير مواضع الوضوء، واستبدال الأبواب والشبابيك القديمة بأخرى جديدة، ليتماشى كل ذلك مع واقع اليوم.

ولكن من الواجب عند إعادة بناء الأبنية التي تحمل طابعاً أثريّاً أو تراثياً احترام الأصل من حيث الشكل ومواد البناء، إذ أن كثيراً من مباني الموصل تنتظر الدور في إعادة البناء، وعليه يجب أخذ ذلك بنظر الاعتبار. وهو أمر لا يمكن تحقيقه إذا ما انيط للمقاولين، فبناء تقليدي بمواد تقليدية يتطلب وقتاً وجهداً، فضلاً عن تكاليف عمل تفوق بكثير تكاليف البناء بالمواد الحديثة، وهو ما لا يحبذه المقاولون. وعليه يجب على الدولة وضع اليد على مثل تلك الاعمال، لحفظ تاريخ البلد وحضارته.

٧/ **التوصيـــــات:**

١ـ يجب أن تقوم الجهات الحكومية المعنية بإعداد تقارير خاصة عن حصيلة المساجد المتضررة، يوضّح فيها حجم الأضرار، مع تقديرات تكاليف إعادة البناء.

٢ـ الإسراع في إعادة تأهيل المساجد، وعلى وجه الخصوص الأثرية منها والتراثية، كونها تمثل حضارة البلد، فهي لا تعني الموصلين فحسب، بل أنها تعني عامة العراقيين بتجسيدها تأريخ بلدهم، فكانت بوقتها من أهم بناه التحتية.

٣ـ يستلزم مع إعادة بناء المساجد، إعادة الأحياء السكنية بإعادة الحياة إليها من خلال توفير الخدمات الاساسية من الماء والكهرباء وخدمات البلدية والصحة والتعليم، كي يتسنى عودة الأهالي إلى مساكنهم. وممّا لا شك فيه أن عودة الأهالي إلى مناطقهم فإنهم سيبادرون إلى إعادة تأهيل مساجدهم، وهذا ما حصل فعلاً في بعض مناطق الموصل.

٤ـ يجب على الدولة المركزية متمثلة بدوائرها ذات العلاقة وضع يدها في هذه الأعمال وعدم ترك الأمر للمقاولين والأهالي، ولاسيما في الأبنية التي تحمل طابعاً أثرياً وتراثياً. إذ إنّهم من دون شك سيعتمدون على مخططات ومواد بناء مختلفة عن الأصل. وعليه يجب إعداد مخططات مسبقة توضّح ما كانت عليه العمائر بتفاصيلها وعناصرها كافة، وطبيعة مواد البناء وكيفية توظيفها، قبل الشروع في أعمال إعادة البناء.

٥ـ إن إعادة بناء المساجد وغيرها من مباني الموصل القديمة، لا بل عموم محافظة نينوى هو انتصار للعراق بإعادة إحياء تأريخيه وحضارته، كما أنها ستزيد من بريق الإنجاز العسكري المتحقق للعرق بإزالة عتمة خراب حضارة الموصل عنه. مما يعنى تحقيق إنجاز إعلامي كبير يوازي الانتصار الكبير الذي حققه جيش العرق الباسل بتحرير المدينة.

الجدول يوضح واقع جامع الباشا منذ بنائه الأول، حتى اعادة بنائه في عام ٢٠١٨- ٢٠١٩م.

الجامع في عهد البناء الأول	واقع الجامع قبل العمليات العسكرية	واقع الجامع بعد العمليات العسكرية	إعادة إعمار الجامع وأعمال البناء	ملاحظات عامة
شرع في بناء الجامع عام ١١٦٩هـ/١٧٥٥م. فتوالت عليه أعمال بناء عديدة بفترات مختلفة، كان لها بالغ الأثر في رسم صورته العمارية. ولا يداخلنا شك من أن الجامع قد تضمن كل ما هو معتمد في مساجد الموصل وقتئذٍ، وبخاصة عناصر تخطيطه وعمارته. إذ توسطه صحن مكشوف انفتحت عليه وحدات البناء. أما مصلاه فقسم بأعمدة تحمل عقودا مدببة إلى بلاطات وأساكيب، لتسقفه قبة نصف كروية. أنفتح المصلى على الصحن ببائكة من عقود مدببة ترتكز على اعمدة (الشكل ١).	منذ التجديد الذي طال الجامع في عام ١٩٥٥م، وفي أيام خروج الموصل عن سلطة بغداد المركزية، حتى بدء عمليات التحرير في عام ٢٠١٦م، ظل الجامع محتفظاً بصورته التي رسمت يومها، إذ تم خلالها هدم المصلى ورواقه، ليعاد البناء على الأسس القديمة. ومع هذا حصل تغيير في عمارة الجامع، تمثل في رواق المصلى والذي كان قوامه كما أسلفنا بائكة من عقود مدببة تحمل سقفاً عُقِدَ بقباب ضحلة ظاهرها مستوٍ، فأستعيض عنه بسقف وركائز خرسانية (الصورة ٢: أ).	بعد بدء عمليات التحرير أصيب الجامع بأضرار جزئية نتيجة للقصف الجوي، فضلاً عن القصف المتبادل من أجل السيطرة على منطقة التجارية ذات الموقع الاستراتيجي المهم عسكرياً، والتي تجعل دفة المعركة بيد من يسطر عليها. ومما لا شك فيه أن أضرار الجامع ما كانت لتكون جزئية لولا أحكام بنيته، إذ تم اعتماد حلول ومعالجات كانت بحق شهادة نجاح لمعماره. فعلى الرغم من كثافة القصف وقوّة الانفجارات، ظلت بنية الجامع سليمة. وهذ دليل على متانته وقوة بنائه ومهارة معماره (الصورة ١١).	أعيد بناء الجامع بإشراف مباشر من دائرتي آثار نينوى وأوقافها في عام ٢٠١٨م. بدأت الأعمال برفع أنقاض الخراب. ثم شرع في إصلاح المصلى وقبته (الصور ٢، ٣). وأصلحت بعدها الجدران التي سقطت طبقة إكسائها؛ لشدة الاهتزازات. أما محرابه الرئيس فتمثلت أضراه بمقرنصاته، فضلاً عن حشواته الزخرفية (الصورة ٤: أ، ب). أصلحت المقرنصات بالاعتماد على صور قديمة للمحراب، فضلاً عن كسرها الأصلية (الصورة ٥). لتصلح بعدها الأرضيات بتغطيتها برمل نظيف للمحافظة عليها باعتبارها أثر أصلي، ومن ثم رصفت بالكاشي (*) بالاتفاق مع دائرة الآثار. وما يخص الميضأة فقد تكسرت قطعها، وتم إعادتها. فأعمدتها أصلية، وحوضها السفلي أيضاً، بينما العلوي مستحدث. وكذلك حال عقودها التي تحمل سقفها (الصور: ٦، ٧، ٨). أما المئذنة فقد تهدمت رقبتها، لتعاد على وفق ما كانت عليه، إلا أن قبتها المعدنية عملت بشكل مخروط بأخاديد رأسية على غرار قبة الميضأة، في حين أن القديمة كانت مخروطية مضلعة. ليأتي الدور بعدها على مدرسة الجامع التي غلفت جدرانها بأحجار الكلس بعد أن كانت مكسوة بملاط سقط لشدة الاهتزازات (الصور ١٠). ——— (*) معلومات أفادنا بها مشكوراً مشرف المشروع الهندسي م. عبد الله مصطفى الفروجي.	تراوحت نسبة أضرار الجامع نتيجة للأعمال الحربية ما بين ٣٥-٤٠٪. تعرض الجامع فيها لقذائف متنوعة العيارات، فضلاً عن اطلاقات رشاشات خفيفة ومتوسطة، ناهيك عن الاهتزازات الناتجة عن القصف الجوي في محيطه، مما أضرت ببنية عمارته جزئياً. بدأت أعمال إعادة البناء برفع الأنقاض خارج الموقع، ومن ثم تنفيذ أحواض تعفين للمياه الثقيلة في وسط الصحن، بحجم أكبر من سابقتها، وبحسب حاجة الجامع الجديدة. تمت هذه الأعمال بأشرف إمام الجامع الشيخ ذاكر حساوي في شهر نيسان/ ٢٠١٨م، وبتمويل من المحسنين. وبعدها تم استلام الجامع من قبل مشروع العودة الميمونة بتاريخ ١٥/ ١٢/ ٢٠١٨م، لتتواصل فيه الأعمال، حتى إعلان اتمام العمل فيه يوم ٢/ ٥/ ٢٠١٩م، وافتتاحه أمام المصلين(*). ومما يجدر ذكره أن تكاليف إعادة بناء الجامع وإصلاح اضراره كانت بحدود ٢٥٠ مليون دينار. ولم تقتصر تلك الاعمال على ترقيع ما تضرر منه، وإنما شملته بالكامل، ليظهر بصورة جديدة. ——— (*) معلومات أفادانا بها مشكورينِ كل من السيد عبد الله مصطفى الفروجي، والسيد محمد إسماعيل حامد.

هوامش البحث:

ملاحظة: سأذكر هنا معلومات كاملة عن المصادر والمراجع عند ذكرها لأول مرة مما يغنينا عن اعداد جريدة للمصادر والمراجع.

(١) سورة التوبة، الآية ١٨.

(٢) الطبري ، محمد بن جرير (ت٣١٠هـ) : جامع البيان في تأويل القرآن ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، ط١ ، مؤسسة الرسالة ٢٠٠٠ ، ج١٤ ، ص١٦٨ .

(٣) القرطبي ، أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت٦٧١هـ) : الجامع لأحكام لقرآن ، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش ، ط٢ ، دار الكتب المصرية – القاهرة ١٩٦٤ ، ج٨ ، ص٩٠ .

(٤) سورة البقرة، الآية ١١٤.

(٥) الطبري: المصدر السابق، ج٢، ص٥٢١.

(٦) القرطبي: المصدر السابق، ج٢، ص٧٧.

(٧) القاري ، علي بن (سلطان) محمد، أبو الحسن نور الدين الملا الهروي (ت١٠١٤هـ) : مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ، ط١ ، دار الفكر، بيروت – لبنان ٢٠٠٢ ، ج٢، ص٥٩١.

(٨) سميت بهذا الاسم نسبة إلى باب كان يؤدي الى سراي الحكومة. سيوفي ، نقولا: مجموع الكتابات المحررة في أبنية الموصل، تحقيق سعيد الديوه جي، بغداد ١٩٥٦، ص ٤٧.

(٩) حسين باشا بن اسماعيل الجليلي واحد من أشهر ولاة الموصل في العصر العثماني. تولى إدارتها خمس مرات، أولها في عام (١١٤٣هـ/١٧٣٠م)، وآخرها بعد عام (١١٥٤هـ/١٧٤١م). ومن أهم انجازات هذا الوالي تحقيق انتصار الموصل الكبير بدحر حملة نادر شاه عام (١١٥٦هـ/ ١٧٤٣م). ينظر: رؤوف، عماد عبد السلام: الموصل في العهد العثماني (فترة الحكم المحلي)، النجف ١٩٧٥، ص٦٢-٦٣.

(١٠) سيوفي: المرجع السابق، ١٣٢.

(١١) مكتب الانشاءات الهندسي، العمائر الدينية في مدينة الموصل ـ نماذج من التوثيق العام، الموصل ١٩٨٣، ج٣، ص٦٠.

(١٢) الديوه جي، سعيد: جوامع الموصل في مختلف العصور، بغداد ١٩٦٣، ص١٨٣.

(١٣) محمد، هيثم قاسم: حلول البناء في مباني الموصل خلال العصور الإسلامية، اطروحة دكتوراه (غير منشورة)، جامعة الموصل ٢٠١٢، ص٣٢.

(١٤) مما يجدر ذكره أن المصلى ورواقه كانا قد ازيلا في عام ١٩٥٥م عندما هدم المسجد وأعيد بناؤه، إلا أنه لم تبنَ بوائك عقود الرواق، إذ استعيض عنها بسقف وركائز خرسانية (الصورة ٢: أ). وعندما شرع في إعادة البناء عام ٢٠١٨م، اعيد بناء الرواق ببوائك عقوده، وتم الاعتماد على صور قديمة لدى دائرة آثار نينوى. جاءت البوائك ببناء خرساني غلفت بأحجار الكلس (الصورة ٨: ب، ٩).

معلومات أفادانا بها مشكورينِ كل من السيد محمد إسماعيل حامد المدير التنفيذي لمشروع إعمار الجامع، والمهندس الاستشاري عبد الله مصطفى محمد الفروجي المشرف الهندسي للمشروع. ويعد هذا المشروع جزءاً

من مشروع العودة الميمونة الذي تولى إعادة إعمار العديد من عمائر الموصل القديمة من مساجد وغيرها. المشرف العام على المشروع السيد الدكتور محمد خالد محسن.

(١٥) تضمن الآيات ٣٧ـ٣٩ من سورة آل عمران. نفذ النص بالحفر البارز ذي القطاع المسطح وبخط الثلث على طريقة ياقوت المستعصمي.

(١٦) وهو ما تطلب وقتاً وجهداً ودقة عمل في إتمامها، معلومات أفادنا بها مشكوراً السيد محمد إسماعيل حامد.

(١٧) وعليه فقد تطلب إعادة بناء ميضأة الجامع بهذه الصورة جهوداً كبيرة من قبل مشرفي العمل ومهندسيه. معلومات أفادنا بها مشكوراً السيد محمد إسماعيل حامد.

(١٨) السرداب: مفردة فارسية من مقطعين، سر: بارد، داب: ماء. وفي الاصطلاح ممر تحت الأرض يصل بين بناءين متقاربين أو متباعدين، يلجأ اليه أيام الحر، ينظر: غالب، عبد الرحيم: موسوعة العمارة الإسلامية، بيروت ١٩٨٨، ص٢٢٠.

(١٩) النووي، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف (ت ٦٧٦هـ): المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، ط٢، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ١٣٩٢هـ، ج٥، ص٤٩.

(٢٠) عن أبي هريرة (رض) أن رجلاً أسْود أَو امْرَأَةً سوداء كانَ يَقُمُّ المَسْجِدَ فَمَاتَ فَسَأَلَ النبيُّ عنهُ فَقالُوا: ماتَ، قالَ: أَفَلاَ كُنْتُم آذَنْتُمُونِي بِهِ دُلونِي عَلَى قَبْرِهِ أَوْ قَالَ عَلَى قَبْرِها فَأَتَى قَبْرَهُ فَصَلَّى عَلَيْها. فيه قال ابن بطال الحض على كنس الْمَسَاجِد وتنظيفها، وقد روي أنه (صلى الله عليه وسلم) قام بكنس الْمَسْجِد، ينظر: العيني، أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى (ت ٨٥٥هـ): عمدة القاري شرح صحيح البخاري، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ج٤، ص٢٣٠– ٢٣١.